مركز نماء للبحوث والدراسات
Nama Center for Research and Studies
namacenter

قراءات

مراجعة كتاب

مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافةالراشدة

جمعها: محمد حميد الله

عبد الصمد زهور

بسم الله الرحمن الرحيم

مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة

جمعها: محمد حميد الله

ذ. عبد الصمد زهور- المغرب

صدر عن دار النفائس كتاب «مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة» في عدة طبعات، نقدم من خلال هذه الورقة الطبعة الثامنة منها التي صدرت سنة ٢٠٠٩ في قرابة ٧٦٠ صفحة من القطع المتوسط، وقد انقسم الكتاب إلى أربعة أقسام، مسبوقة بمقدمات الطبعات الخمس الأولى، يضم القسم الأول مجموعة الوثائق السياسية الخاصة بالعهد النبوي في مرحلة ما قبل الهجرة، فيما يضم القسم الثاني مجموعة الوثائق السياسية الخاصة بالعهد النبوي خلال مرحلة ما بعد الهجرة، ويضم القسم الثالث مجموعة الوثائق السياسية لفترة الخلافة الراشدة، وأما القسم الرابع والأخير فهو عبارة عن ضميمة تضم مجموعة من الوثائق التي نسبت إلى النبي أو إلى غيره من الخلفاء الراشدين.

يستشف من خلال مراجعة **مقدمات الطبعات الخمس الأولى** أن الدكتور **محمد حميد الله** رام من خلال جمعه لهذه الوثائق توفير **أسانيد رسمية تمكن من فهم الواقع السياسي والديني** لمرحلة الدعوة والحكم النبويين والخلافة الراشدة فهمًا صحيحًا، وما يزيد هذا الكتاب أهمية هو أنه

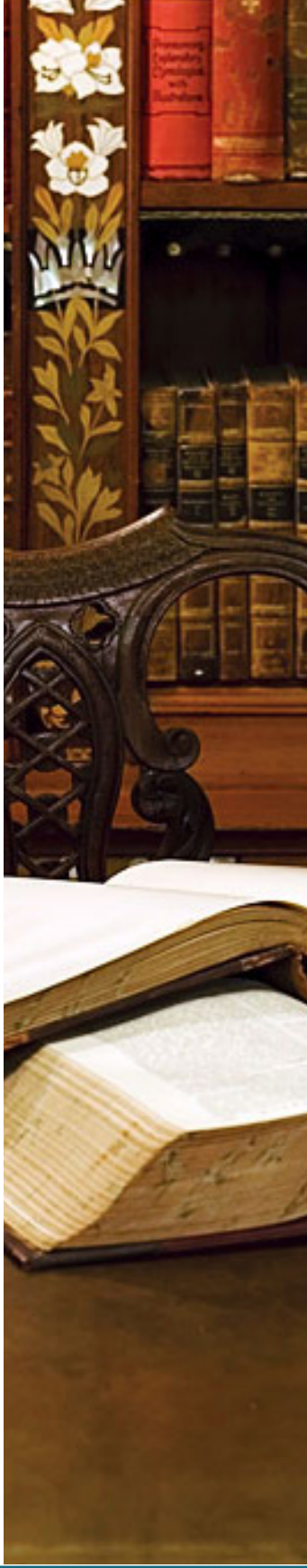

يجعلنا نقف على **الكيفية التي حاول من خلالها العقل الديني أن يقدم نفسه كعقل سياسي يخطط ويدبر وينظم دون أن ينفصل عن وعائه الديني.**

ما من شك إذن أن الاطلاع على وثائق مهمة من قبيل هذه الوثائق سيمكن من الإجابة عن أسئلة مُلحة، من قبيل: **هل يمكن أن تقوم اليوم دولة إسلامية؟ هل الأنموذج النبوي والراشدي قابل لأن يُقتدى به في أمور الدنيا على النحو نفسه الذي يُقتدى به في أمور الدين؟ ما الذي تفتقر إليه الدول الإسلامية (العربية) اليوم بشكل يجعلها تنظر إلى ماضيها على أنه أفضل من حاضرها؟ هل في هذه الوثائق ما يبرر هذا الوعي بالتأخر عن الماضي؟**

ينطلق الدكتور **محمد حميد الله** من أن الواقع سياسي لما قبل العهد النبوي يكشف عن نفسه من خلال الوثائق المتوفرة كواقع ذي قدرات محدودة جدًّا على التنظيم السياسي بما يتطلبه من تراسل مع باقي القبائل وتحرير للعهود، مما يعني أن هنالك **نهضة سياسية حقيقة ظهرت على هذا المستوى واكبت مجيء الدين الإسلامي، حيث اجتمعت مختلف القوى العربية تحت راية واحدة وكلمة واحدة ومركز واحد، وتطلب ذلك تشكيل دولة ذات أنظمة وخطط واضحة المعالم، قادرة على أن تنافس سياسيًّا وتنظيميًّا القوى المجاورة، ونقصد هنا القوى الفارسية والبيزنطية وغيرها.**

هذا الوضع تطلب **كتابة الكتب ورسم العهود وحفظ الوثائق والمعاهدات**، رغم الوثائق السياسية للعهد النبوي الأول أي قبل الهجرة قليلة جدًّا ونادرة، إلا أن **وتيرة التراسل السياسي والتنظيم الإداري ستتجه صعودًا بالانتقال من هذا العهد إلى عهد ما بعد الهجرة ومنه إلى عهد الخلافة الراشدة.**

تجدر الإشارة إلى أن الدكتور **حميد الله** قد اعتمد في جمعه لهذه الوثائق على أعمال مهمة لباحثين عرب ومستشرقين وشرقيين وأيضًا تلك التي تضمنتها كتب تاريخ الإسلام الأوربية،

وإذا أردنا أن نذكر بعضهم قلنا: المستشرق الألماني فلايشر، **المستشرق الإنجليزي دنلوب، والكاتب الألماني أشبر نكر، والإيطالي كايتاني، طبقات ابن سعد، تاريخ الطبري، فتوح البلاذري، أبو عبيد القاسم بن سلام صاحب كتاب الأموال، وأبو يوسف صاحب كتاب الخراج، كتب الحديث، كتاب الأماكن للحازمي، معجم الصحابة لابن قانع، محمد مصطفى محمود الأعصمي... إلخ.**

أما بخصوص المعايير التي ارتكز عليها الدكتور حميد الله في إقراره هذه الوثائق فهي ترتبط أساسًا **بلغة الوثائق وبالوضع والصحة**، كما أنه زود الكتاب بشروحات وفهارس متنوعة بالأسماء والأنساب والصور، وأيضًا ملحق بالتصحيحات والاستدراكات حتى يكون مضمون الكتاب أكثر وضوحًا من مختلف الجوانب الممكنة.

✸ القسم الأول: وثائق العهد النبوي قبل الهجرة

يعتبر القسم الأول من الكتاب هو أصغر الأقسام حجمًا لكونه يغطي فترة قصيرة، هي فترة البداية التي تكون عادةً لحظة مؤسسة، غير أنها بطيئة من حيث الحركية السياسية، إنها لحظة إثبات الذات الدينية باعتبارها ذاتًا غير مألوفة تشتغل في سرية وتقاوَم من قبل غيرها، لذلك ضاعت أغلب وثائق هذه المرحلة بسبب الصراع الدائر بين وضع ينهار ووضع مستجد يحاول أن يكشف عن ذاته.

أول وثيقة مشكلة لهذا القسم **رسالة إلى النجاشي في شأن مهاجري الحبشة، ثم نص إقطاعه ﷺ للداريين، ثم نص مقاطعة قريش رهط النبي** من أجل محاصرتهم اقتصاديًّا واجتماعيًّا، ثم نصوص بيعات العقبة الثلاثة التي تتمفصل بالمواسم التي كان يخرج فيها الرسول إلى رهوط القبائل الزائرة من أجل تبليغ دعوته إليهم، وكان مضمون البيعة المتعاقبة تعاقد المبايعين على ما نصه «**أن لا نشرك بالله شيئًا، ولا**

نسرق، ولا نزني، ولا نقتل أولادنا، ولا نأتي ببهتان نفتريه من بين أيدينا وأرجلنا، ولا نعصيه في معروف»[1] وما شابه ذلك من الالتزامات، كما يضم هذا القسم **كتاب الأنصار إلى رسول الله طالبين معلمًا** يفقههم في أمور الدين، **ثم كتابه إلى مصعب بالمدينة** من أجل إقامة صلاة الجمعة، وكان نص هذا الكتاب مختصرًا، «**أما بعد: فانظر اليوم الذي تهجر فيه اليهود بالزبور لسبتهم، فاجمعوا نساءكم وأبناءكم. فإذا مال النهار عن شطره عند الزوال من يوم الجمعة، فتقربوا إلى الله بركعتين»**[2]، **ثم كتاب أمان لسراقة بن مالك المدلجي** لما خرج النبي إلى المدينة ليأخذها.

بهذا الكتاب الأخير تتم وثائق عهد ما قبل النبوة وهي كما يُرى لا تعكس وجود نظام سياسي وإداري محكم، باستثناء بيعات العقبة التي اعتبرها الدكتور **محمد حميد الله** وثائق تأسيسية للدولة الإسلامية، بحيث تعكس بداية اجتماع الكلمة حول المركز.

✸ القسم الثاني: وثائق العهد النبوي بعد الهجرة

أهم وثيقة في هذا القسم هي كتابه ﷺ بين المهاجرين والأنصار واليهود وهو دستور الدولة البلدية بالمدينة، وقد عرفت هذه الوثيقة بالصحيفة أو الدستور أو الميثاق ويتكون من سبعة وأربعين بندًا تنظم العلاقات بين المهاجرين والأنصار واليهود بعد هجرته ﷺ من مكة إلى المدينة.

يضم هذا القسم إلى جانب ذلك **كتاب تحريم رسول الله للمدينة المنورة** وتحريره وهو تخطيط حدود الدولة البلدية بالمدينة، ثم كتابه ﷺ يطلب إحصاء الناس، أي إحصاء عدد المسلمين، وكذلك يضم المكاتبة التي وقعت بين كفار مكة

(١) محمد حميد الله، مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة، دار النفائس، الطبعة الثامنة، ٢٠٠٩، ص ٤٧.
(٢) نفسه، ص ٥٣.

ومنافقي المدينة ويهودها، وهو ما كان سببًا حقيقًا في الحرب مع بني النضير، ومضمون هذه المكاتبة من أهل قريش: «**إنكم آويتم صاحبنا، وإنكم أكثر أهل المدينة عددًا، وإنا نقسم بالله لتقتلنه، أو لتخرجنه، أو لنستعين عليكم بالعرب، ثم لنسيرن إليكم بأجمعنا، حتى نقتل مقاتليكم ونستبيح نساءكم**»[1]، ثم كتابه ﷺ لعبد الله ابن جحش من أجل ترصد قريش، ومن أهم وثائق هذا القسم فيما يتعلق بتراسله وتعهداته مع قريش **وثيقة هدنة الحديبية، ودعاؤه خالد بن الوليد إلى الإسلام، ثم خطبته أيام فتح مكة.**

كما تعتبر **معاهداته مع اليهود** جزءًا مهمًا في هذا القسم، والمقصود هنا **يهود المدينة وخيبر** وتنظيم العلاقة معهم، وكذلك تراسله مع **يهود بني عاديا** ومنحهم الأمان، **وأمره بإطعام يهود بني عريض**. ويضم هذا القسم الوثائق المتعقلة **بتراسله مع النجاشي في الحبشة**، ومع **هرقل عظيم الروم**، **وأسقفهم في القسطنطينية وأسقف أيلة**، وكذلك **تراسله مع رؤوس أهل الشام ومعان والغسانيين وقبائل العرب في حامية الروم ومصر**، وهؤلاء كلهم كانوا تحت لواء **الدولة الرومية أو البيزنطية**.

كما يضم هذا القسم تراسله مع **قادة الدولة الفارسية** ولواحقها، والمقصود هنا **كسرى وعماله**، ثم **البحرين واليمامة وعمان ونجران واليمن وحضرموت وتميم**، وأيضًا تراسله مع **القبائل العربية** من قبيل: **جهينة، ضمرة، أشجع ومزينة، خزاعة، الطائف وسليم** وغيرها من القبائل.

يختتم هذا القسم **بخطبة حجة الوداع**، ومن أجمل ما فيها قوله ﷺ: «**أيها الناس، إن ربكم واحد وإن أباكم واحد. كلكم لآدم، وآدم من تراب. أكرمكم عند الله أتقاكم. وليس لعربي على عجمي فضل إلا بالتقوى. ألا هل بلغت؟ اللهم فاشهدوا. قالوا نعم. قال: فليبلغ الشاهد الغائب**»[2].

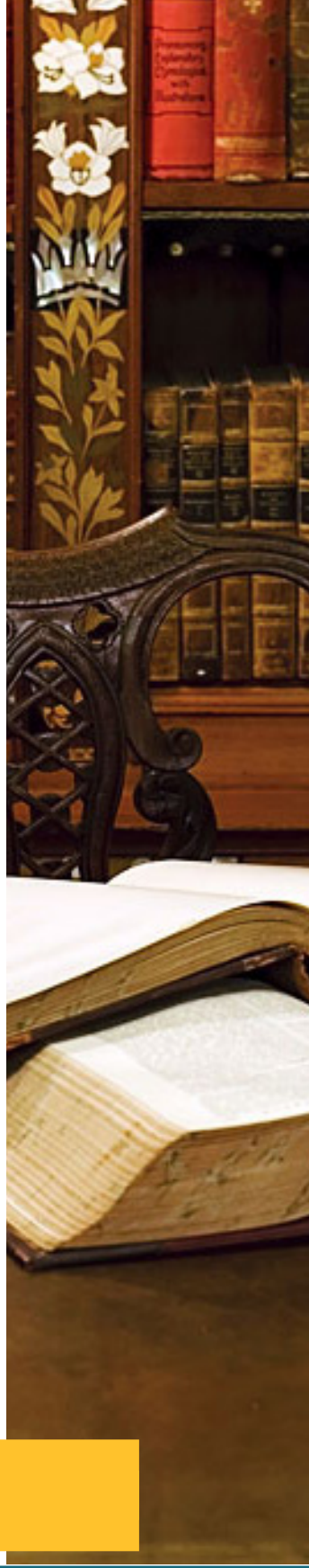

(١) نفسه، ص ٦٦.

(٢) نفسه، ص ٣٦٠.

الوثائق المشكلة لهذا القسم حسب الدكتور **حميد الله** ترتبط بمرحلة **هجرة الرسول من مكة إلى المدينة مع ما ولده ذلك من قلاقل مع قريش ومن تغيير على مستوى النظام السائد على مستوى المدينة**، ثم بعد ذلك من **تأسيس دولة قوية دخلت في حوار سياسي وإداري وديني مع غيرها من القوى السياسة في بقاع مختلف مجاورة**، وعليه تكون مجموع وثائق هذا القسم الوثائق الأساسية التي تكشف عن **الكيفية التي خرجت بها الدولة الإسلامية من وضع الكمون إلى وضع التواجد الفعلي**.

✸ القسم الثالث: وثائق عهد الخلفاء الراشدين

يضم هذا القسم مجموع الوثائق السياسية للعهد الذي حكم فيه الخلفاء الراشدون: أبو بكر الصديق، عمر بن الخطاب، عثمان بن عفان وعلي بن أبي طالب، وتتوزع هذه الوثائق بين أن تكون تعيينًا بمهام في أمور الحرب والسلم، أو مراسلات بين الخلفاء الراشدين وباقي الأمراء، ومعاهدات بين مركز السلطة والأهالي في مختلف بقاع العالم الإسلامي التي فُتِحَت سواء في بلاد فارس أو الشام وفلسطين أو مصر والمغرب. كما يضم هذا القسم أيضًا رسائل إلى حكام الدول المجاورة لبلاد المسلمين كما هو الحال مع قيصر قسطنط الثاني.

إذا كان لزامًا أن نذكر بعضًا من هذه الوثائق المشار إليها هنا بشكل عام، نقول إن منها على سبيل المثال لا الحصر: **تولية المثنى من قبل أبي بكر على حرب العراق والفرس، وكتاب أبي بكر إلى خالد يسيره إلى الحيرة ثم إلى الشام، كتاب الخليفة عمر إلى سعد بن أبي وقاص، كتاب عمر إلى أهل الكوفة، كتاب عمر إلى أبي موسى عبد الله بن قيس الأشعري المشهور بكتاب سياسة القضاء وتدبير الحكم، كتاب عثمان بن عفان إلى أهل الأمصار، كتاب عثمان إلى علي حين حصر، تحكيم علي ومعاوية في حق الاستخلاف، كتاب معاوية أمير الشام إلى قيصر قسطنط الثاني أيام صفين سنة ٣٧ هجرية... إلخ.**

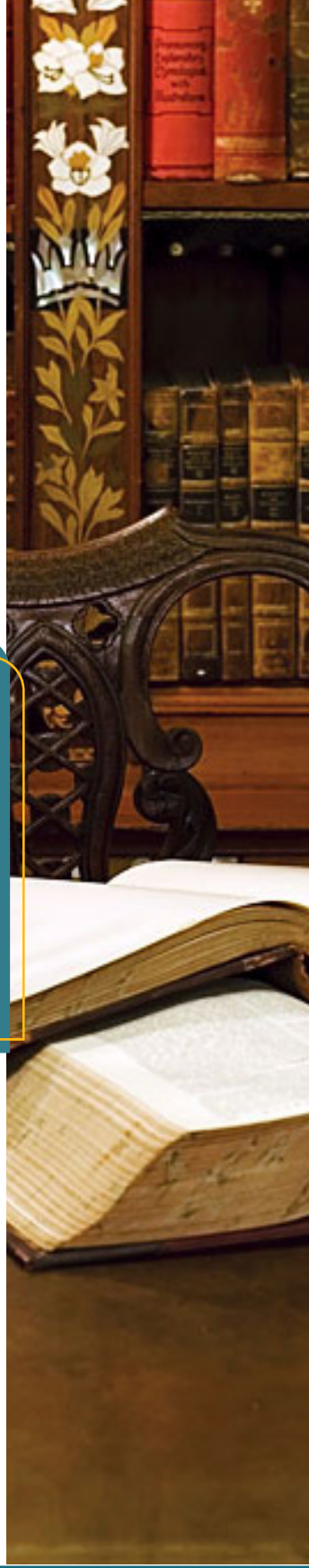

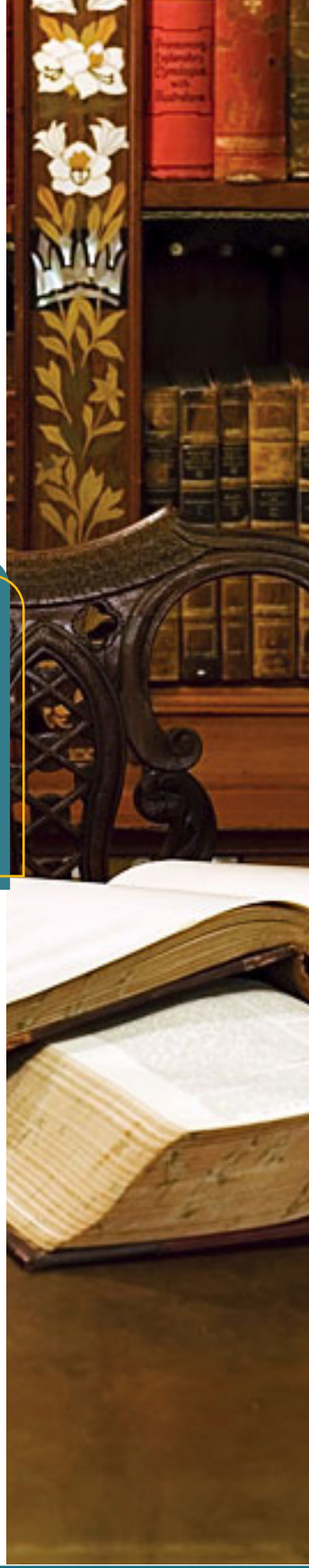

الظاهر من خلال تتبع وثائق هذا القسم أنها تع**طينا ملمحًا واضحًا عن الكيفية التي كانت تسير بها شؤون الدولة الإسلامية بعد وفاة الرسول** ﷺ، وهو ما يجعلها سندًا لفهم أعمق **لإشكالية تشكل الدولة الإسلامية وسيرورتها وصيرورتها تاريخيًّا**، رغم كون هذه المرحلة ككل هي مرحلة إثبات ذات تطلب **الدخول في صراعات سياسية داخلية وخارجية** على سواء.

✸ القسم الرابع: ضميمة تضم وثائق متنوعة

هذا القسم الأخير يضم مجموعة من الوثائق المنسوبة إلى النبي ﷺ كعهوده إلى اليهود والنصارى والمجوس وغيرها وهي لا تكاد تصح البتة حسب الدكتور محمد حميد الله، وبالتالي يكون ذكرها هنا من أجل الوقوف على الكيفية التي يكون بها الاختلاق والوضع حسبه، ومن بين هذه الوثائق أيضًا كتاب عزاء إلى معاذ ابن جبل بعد وفاة ابنه، وعهد النبي لأقارب سلمان الفارسي المجوسيين... إلخ.

بعد هذا القسم وضع الدكتور محمد **حميد الله** مجموعة من الفهارس، أولها **فهرس يشرح الألفاظ** وكان مرتكزه في تحديد دلالتها «لسان العرب» أساسًا، وهو فهرس مطول وجد مهم لتبين معاني كثير من الألفاظ التي ورد ذكرها في **الوثائق السياسية سواء تلك المرتبطة بالعهد النبوي أو بالخلافة الراشدة**، وهي ألفاظ دالة على معاني في اللغة أو على مراتب دينية أو سياسية مرتبطة على حد سواء بالحضارة الإسلامية وبغيرها من التسميات التي وضعها أهل الحضارات التي احتكت بالحضارة الإسلامية خلال هذه المرحلة، وإن كان لزامًا علينا أن نذكر بعضها، نقول إن منها على سبيل الإجمال لا الحصر: **إصبهبد** (كلمة فارسية تعني قائد الجيش)، **أسقف** (رئيس النصارى الديني فوق القسيس ودون المطران)، أكر (الفلاح)، **البطن** (ما دون القبيلة وفوق الفخذ)، **الثيب** (المتزوجة التي فارقت زوجها بعد أن مسها)، **حبس** (وقف ينتفع منه ولا

يباع)، **الخف** (ما يلبسه الإنسان في الرجل فيستر إلى الكعب)، **السبط** (القبيلة عند بني إسرائيل)، **صمصام** (السيف)... إلخ.

بعد هذا الفهرس يليه تذكرة بالمصادر التي تم الارتكاز عليها في وضع هذه الوثائق والتحقق من صدقيتها نسبتها إلى من نسبت لهم، وها هنا نجد أسماء مهمة، منها على سبيل الإجمال لا الحصر: **ابن أبي داود السجستاني، ابن الأثير، ابن باديس، ابن الجوزي، ابن حزم الأندلسي، ابن خلدون، ابن سعد، ابن عبد البر، ابن عبد الحكم، ابن عبد ربه، ابن منظور، أبو حاتم الرازي، أبو زرعة، أحمد زكي باشا، أبو الفرج الأصفهاني، الأعشى، البخاري، البيهقي، الترمذي، الخطيب البغدادي، الدارمي، السيوطي، السخاوي، القزويني، القلقشندي، ماك مايكل Mac michael، كريل Krehl، ليشنسكي Leszynsky، المقريزي، هل Hell، هيفيننك Heffening**... إلخ.

✸ ختامية

هكذا نكون قد قدمنا من خلال هذه الورقة كتابًا من أبرز الكتب التي نهضت بمهمة جمع الوثائق السياسية المتعلقة بالعهد النبوي والخلافة الراشدة، وكما قلنا سلفًا فهذه الوثائق جد مهمة لفهم الكيفية التي تشكلت بمقتضاها الدولة الإسلامية ووطنت لنفسها لكي تتخذ هذه الصفة التي تربط الديني بالسياسي، وبالتالي تكون هذه الوثائق فرصة لإثارة أسئلة ترتبط بواقع الدول الإسلامية اليوم وبسؤال تخلفها مقارنة بالتقدم الذي تحققه الدول التي تحاول أن تقدم نفسها على نحو سياسي صرف، بعيدًا عن الخلفيات الدينية، كما يمكن من خلال هذه الوثائق الوقوف على دور الدين في قيام دولة وجمع فرقها من عدمه. لذلك لا يسعنا في الأخير إلا أن نؤكد على ضرورة الانطلاق أساسًا من هذه الوثائق في تشخيص ماضي الأمة وصياغة الآفاق المستقبلية التي يمكن أن تقدم من خلالها ذاتها، كأمة فاعلة لا منفعلة.